

الحمرائي، أحمد : التنافس الدولي في جنوب البحر
الأحمر (١٨٧٢-١٩٠٦)، جامعة الملك سعود، كلية
الآداب، قسم التاريخ، رسالة دكتوراه، ١٩٩٥

إعداد: أحمد سفر الحمرائي*

تم التركيز في هذه الدراسة على أهداف الصراع والسياسات الخارجية لكل من بريطانيا وفرنسا وإيطاليا والدولة العثمانية وصراع تلك الدول في المنطقة التي تشمل اليمن وأريتريا والصومال وإثيوبيا وحوض نهر النيل وروافده ، وتأثير الولايات المتحدة الأمريكية وألمانيا والنمسا وروسيا والقوى المحلية على مجريات الصراع ، وسباق التسلح والتحالفات الدبلوماسية والعسكرية وحروب العصابات، وقضايا التنصير والاستيطان والمياه ومناطق النفوذ والمجالات الحيوية والمفاوضات والدبلوماسية القسرية التي أدت إلى ترسيم الحدود ، والاستراتيجيات التي انتهجت لإدارة الصراع . ولتوضيح ذلك بايجاز يمكن التركيز على العناصر التالية :

أهداف الصراع :

سعت الدول المتصارعة لتحقيق الأهداف التالية :

- (١) زيادة قوة الدولة وحماية أمنها القومي عبر التوسع .
- (٢) الحصول على مجالات حيوية للاستيطان وبسط النفوذ وإيجاد فرص للعمل واستثمار رؤوس الأموال وحماية مصالح حيوية واضحة المعالم بحيث تمثل امتداداً لقوة الدولة وهيبتها.

* دكتوراه في التاريخ الحديث - إدارة التحليل السياسي - وزارة الخارجية.

(٣) تحقيق بعض الانتصارات الخارجية للتنفيس عن السخط الاجتماعي وتحقيق التلاحم الداخلي وتغذية الروح الوطنية وتعزيز اتجاه المحافظة على الأوضاع السياسية القائمة.

(٤) محاربة العقيدة الاسلامية بالنسبة للدول الصليبية.

(٥) السيطرة على المراكز الاستراتيجية التي تتحكم في الجزر والمضايق البحرية وطرق المواصلات الدولية وتمثل بوابة خلفية للمقدسات الاسلامية في مكة المكرمة والمدينة المنورة.

(٦) السيطرة على طرق القوافل ومصادر التموين والمياه والاسواق والمواد الخام والمراعي والثروات الحيوانية والزراعية والموارد البشرية والمناطق التي اكتشف فيها البترول.

(٧) تعزيز متطلبات الهيبة والعظمة.

خصائص السياسات الخارجية :

تميزت سياسات الدول المتصارعة بأنها هجومية ودفاعية في آن واحد . غير أن المصداقية وقوة فرص المنافسة أو محدوديتها بالنسبة لكل دولة قد اعتمدت على تجربتها التاريخية وقدرتها على التفكير السياسي السليم ودقة تخطيطها الاستراتيجي وتحديد أهدافها بوضوح ووسائل تحقيقها ، ومهاراتها الدبلوماسية والاعلامية ، ومدى توفر وقوة مواردها الاقتصادية، ودرجة تطورها العلمي والتقني وتقدمها الصناعي في المجالات العسكرية والمدنية مقارنة بغيرها. وهذا يجعل من السهل مخادعة بعض الدول وتوظيف جهودها واستغلالها لمصلحة تلك الدول التي تتفوق عليها من حيث القوة التقنية والاقتصادية والعسكرية والحنكة السياسية والمهارة الدبلوماسية ويمكن أن تنتكر لها عندما تقتضي مصالح تلك الدول أن تنتهج سياسات مغايرة لما سبق الاتفاق عليه معها.

ومع ذلك فإن نتائج الصراع بين دولتين أو أكثر بالنسبة لجميع الدول المتصارعة قد تحققت في المحصلة النهائية وفقاً لتضافر عوامل محلية وإقليمية ودولية والقوة الذاتية لكل دولة. وبالرغم من أن تحركات جميع الدول قد جاءت في الغالب مدروسة ضمن خطة شاملة إلا أنه يمكن تصنيف سياسات تلك الدول وفقاً للخصائص التالية :-

(١) بريطانيا : التخطيط والتصميم على تحقيق الأهداف المرسومة ضمن استراتيجية شاملة تآزرت لتنفيذها الاستخبارات والدبلوماسية الوقائية والقوة الذاتية وتماسك التحالفات والتنسيق المحكم والتوقيت الدقيق وفرض سياسة الأمر الواقع .

(٢) فرنسا : التردد والافتقار الى الحسم في بعض المراحل نتيجة للصراع بين الوزارات المختلفة داخل نظامها السياسي، والتخوف من إحتمال نجاح المشاريع التوسعية لمنافسيها ، والتأثر بالتهديدات الدبلوماسية، والتركيز على الاحتجاجات القانونية لحماية حقوق السيادة العثمانية في حوض النيل، وانهيار تحالفاتها العسكرية والدبلوماسية في منطقة البحر الاحمر، وتصميمها على الانتقام من المانيا كهدف نهائي لايقبل المصالحة.

(٣) ايطاليا : عنجهية القوة، والافتقار الى الرؤية المستقبلية المتزنة، والافراط في السعي وراء متطلبات الهيبة والعظمة والمجازفات الخارجية، والتهور والتخبط ، والارتجال غير المسئول في سياستها الخارجية وفقدان مصداقيتها التفاوضية، وتفوق طموحاتها على امكانياتها مما ادى الى تدهور موقفها الدولي بعد ان تخطى حلفاؤها عنها عندما ازفت ساعة الحسم قبيل الحرب الايطالية الحبشية في عدوة،

(٤) **الدولة العثمانية :** الافتقار الى الحسم نظرا لسوء ادارتها السياسية خاصة في اليمن ، وتخلفها العلمي والتقني، وتعرضها للتعديات الدولية مما ادى في النهاية الى انهيارها بعد تدخل الولايات المتحدة الامريكية لصالح بريطانيا وحلفائها في الحرب العالمية الأولى.

نتائج الصراع :

- تمخض الصراع في مختلف مراحله عن عدة نتائج سياسية وعسكرية ودينية واقتصادية واستراتيجية ويمكن تلخيص اهمها في النقاط التالية :-
- استقطاب القوى المحلية والاقليمية .
- انتشار حركة تهريب الاسلحة والذخيرة الاوروبية وازدهار تجارتها في المنطقة .
- ازدياد نشاط جمعيات التنصير وسعيها الحثيث بطرق منظمة ومنهجية لمحاربة العقيدة الاسلامية ومحاولة تنصير ابناء المسلمين.
- حصول الدول المتنافسة على قواعد بحرية اعطتها تسهيلات عسكرية في مواقع متقدمة للعمل في منطقة البحر الاحمر وخليج عدن والمحيط الهندي وبحر العرب والخليج العربي ، ومكنتها من مراقبة التحركات العسكرية في المنطقة وتعزيز مواقعها الامنية والاشتراك في الاشراف على حركة خطوط الملاحة البحرية التي لا تستطيع ان تمر الا عبر مجال يخضع جزء منه لسيطرتها . وبذلك تكون خطوط الامدادات قصيرة وتصبح التعزيزات قريبة المنال في اوقات الطوارئ.
- التأكيد على تأصيل روح الغدر والثأر والانتقام في العقلية الغربية.
- توقف نجاح الجهود الحربي لاية قوة محلية او اقليمية على مدى ما تتخذه بعض

الدول العظمى من سياسات عسكرية ودبلوماسية واقتصادية لصالح تلك القوة او ضدها.

- ترجيح القوى المحلية والاقليمية لكفة بعض الدول في صراعها مع القوى الاخرى المنافسة لها.

- اختلاف نوعية الممارسات السياسية نتيجة لمجيء قيادات جديدة تسعى الى وضع بصماتها المميزة على السياسات التي تنتهجها حكوماتها.

- إقتسام مناطق النفوذ وترسيم الحدود بناء على توازن القوى وتوازن المصالح، وما تضمنه ذلك من توزيع للثروات المحلية بين القوى الفاعلة في المجال الدولي وسلب استقلال الشعوب واخضاعها للحكم الاجنبي الذي عمل بطريقة منهجية على مسح هويتها.

- سعى كل دولة عظمى الى تحقيق مصالحها الذاتية وفقا لمفهومها الخاص بغض النظر عن مصالح وتطلعات الشعوب المحلية.

- انقسام المجال الدولي بنهاية الفترة الى كتلتين متصارعتين مما هيا المسرح لاندلاع الحرب العالمية الأولى .

- اندلاع الثورة البلشفية بتحريض من المانيا، وقيام الاتحاد السوفيتي على انقاض الامبراطورية الروسية القيصرية خليفة بريطانيا وفرنسا المعاديتين لألمانيا.

- مشاركة الدبلوماسية الفرنسية في ادارة الصراع واستثمار التحالفات الدولية للانتقام من المانيا حيث حلت الهزيمة بالاخيرة في الحربين العالميتين الأولى والثانية وجزئت

أراضيها ولم تتوحد مرة ثانية الا بعد انتهاء الحرب الباردة في بداية العقد الاخير من القرن العشرين.

- اشتراك الولايات المتحدة الأمريكية في الحرب العالمية الأولى وترجيحها لكفة المعسكر المعادي لألمانيا والنمسا والدولة العثمانية وما نتج عن ذلك من هزيمة لتلك الدول وانهيار الامبراطورية العثمانية.

- التوصل الى اتفاقية سايكس - بيكو بين بريطانيا وفرنسا وروسيا لاقتسام املك الدولة العثمانية.

- صدور تصريح بلفور في ٢ نوفمبر ١٩١٧م الذي تعهد لليهود بوطن قومي في فلسطين، وحظي بمباركة كل من فرنسا والولايات المتحدة الامريكية.

- قيام نظام دولي جديد في اطار عصبة الأمم.

- غزو ايطاليا لاثيوبيا عام ١٩٣٦م، انتقاما للهزيمة التي حلت بها في معركة عدوة عام ١٨٩٦م، مما أدى الى انهيار عصبة الامم المتحدة.

- اندلاع الحرب العالمية الثانية التي نشأت بصفة رئيسية نتيجة لرغبة المانيا في الانتقام للهزيمة التي منيت بها في الحرب العالمية الأولى.

- انقسام العالم بعد الحرب العالمية الثانية الى كتلتين متصارعتين بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتي واشتراكهما في ادارة الصراعات الدولية.

استراتيجيات ادارة الصراع :

أما الكيفية التي أدير بها الصراع فيمكن توضيحها من خلال اجمالها في

الاستراتيجيات التالية :

(١) ادراك وتحديد الاخطار والتحديات التي تواجه الأمن القومي والتميز بين البدائل واختيار السياسات التي تمزج بين المثالية والواقعية المستنيرة والاحتفاظ بزمam المبادرة لردع التعديات الدولية والتصدي لها وحماية وصيانة الكيان والمكتسبات والتقليل بقدر الامكان من الحيز الذي يمكن أن تشغله المصادفة.

(٢) عقلنة التفكير السياسي وما يتطلبه ذلك من توزيع للأدوار وحساب للخطوات وتغيير للتكتيك والأسلوب حسب ماتمليه الظروف بحيث تصبح ممارسات السياسات الخارجية أكثر فعالية وأشد ضراوة.

(٣) بناء القوة الذاتية عن طريق امتلاك احدث ماتوصل اليه العلم في مجال التسليح والتقنية العسكرية، وتعزيز القدرات الدفاعية واتخاذ الاحتياطات الامنية العملية للتصدي للاخطار المحتملة. وتجري زيادة القوة الذاتية عبر تكوين تحالفات استراتيجية دولية واقليمية ومحلية لردع واحتواء الدول التي يمكن ان تشكل مصدرا للاخطار والتحديات ولديها الرغبة والقدرة على ايجاد الفرص واستغلالها واستبعاد الدول المنافسة لها او الهيمنة عليها. وتستمد تلك التدابير اهميتها من حقيقة انها تجعل من الممكن الصمود والمنافسة القوية والفعالة في عالم متعدد القوى والاطراف القادرة على تغيير الخارطة السياسية الدولية مما يجعل من المتعذر امكانية المشاركة في رسم ايقاع التفاعلات الدولية والتحكم في مسارها الا بانتهاج بعض اساليب الادارة الجماعية للصراع التي تكفل امن ومصالح الاطراف المعنية من خلال التعاون والتنسيق في مجال تبادل الخبرات العسكرية والمعلومات الامنية ومراقبة التحركات العسكرية للقوى المعادية وتسهيل استخدام الموانئ والقواعد العسكرية وتقديم

المساعدة في حالة قيام عدوان عسكري على أي من الدول المتحالفة أو على الأقل الالتزام بالحياد.

(٤) الانذار المبكر عن طريق تصريحات وتحركات زعماء الدول حيث تعتبر مؤشرات هامة تدل على توجهات سياساتها الخارجية.

(٥) تحديد النقاط ذات الأهمية الاستراتيجية وتحسينها وتركيز الحماية عليها.

(٦) توسع دائرة الصراع وتصعيده . فعندما اضطرت القوات الفرنسية الى الانسحاب من مصر في اكتوبر ١٨٠١م قرر نابليون بونابرت ان يتنازل لامريكا عام ١٨٠٣م عن ولاية لويزيانا غرب نهر المسيسيبي بالاضافة الى بعض الاجزاء الاسبانية من فلوريدا وتكساس لكي يجعل من الولايات المتحدة الامريكية منافسا بحريا قويا نكاية بانجلترا. وقد جاءت تلك الخطوة الفرنسية لتدعم استقلال امريكا الذي سبق وان تحقق نتيجة للدعم الاستراتيجي الذي قدمته لها فرنسا اثناء ثورة الاستقلال الامريكية ضد بريطانيا. كما ان فرنسا ايضا تدخلت في الحرب الاهلية الامريكية الى جانب الولايات الشمالية الامريكية في حربها ضد حركة الانفصال الجنوبية وحليفها بريطانيا حيث ارسل نابليون الثالث جيشا الى المكسيك واقام حكومة مؤقتة موالية لفرنسا وادى ذلك التحرك الاستراتيجي الى وضع بريطانيا وحلفائها بين فكي كماشة من الشمال والجنوب وكان له الدور الحاسم في انتصار الولايات الشمالية وتعزيز الوحدة القومية الامريكية. وهنا يتضح ان العلاقة الفرنسية البريطانية التي اتسمت بالتعاون عبر دخول الطرفين في تحالف مشترك اثناء حرب القرم قد تحولت في فترة وجيزة الى علاقة اتسمت بالصراع كان من اهم نتائجها اندحار حركة الانفصال الامريكية، وتصميم بريطانيا على احتلال مصر لتعويض القطن الامريكي

الذي اعتمدت عليه صناعة النسيج البريطانية، والسيطرة على قناة السويس التي كانت في الاساس مشروعا فرنسيا، وتصعيد الصراع بين فرنسا وبريطانيا في مناطق اعالي النيل .

(٧) اشعال الصراع بين الدول المنافسة وإلهاء الدولة التي اقتطع جزء من اراضيها لدولة حليفة او تلك التي حلت بها الهزيمة في الحرب وعانت من الاذلال حتى لاتركز على الانتقام. ويتم ذلك من خلال تأييد المشاريع التوسعية لتلك الدول ورد الاعتبار لها واعطائها الفرصة لتحقيق بعض الانتصارات حتى وان كانت وهمية وذلك للتصالح مع ذاتها وتخليص ضميرها القومي من العار الذي لحق به من جراء الهزيمة.

(٨) زيادة تعرفه الحماية الجمركية وفرض العقوبات الاقتصادية.

(٩) احداث التغيير من داخل البلدان المستهدفة من خلال استغلال الطموح السياسي واستقطاب القوى الاقليمية والمحلية وايجاد مصالح مشتركة معها وتزويدها بالاسلحة والذخيرة الحديثة على شكل هدايا او بأسعار رمزية وتشجيع الصراع على السلطة وشن حروب العصابات والدعاية السياسية والترويج للاوهام والحرب النفسية ضد القوى المنافسة وحلفائها.

(١٠) مبالغة الدول في تقديرها لقدراتها وتشويهها لقدرات وسمعة القوى المنافسة لها.

(١١) التركيز على الاستخبارات من خلال مراكز الرصد الاستراتيجي والتحليل والبعثات التنصيرية والجمعيات الجغرافية والممثلات الدبلوماسية والشركات الخاصة والمتعاونين المحليين وذلك للتجسس والحصول على معلومات دقيقة وتقديرات موضوعية لجميع المواقف والامكانات والفرص والامكانيات التي تهم الدولة المعنية ومراقبة الاوضاع الداخلية للدول المنافسة وتحركاتها وتحركات القوى المتحالفة معها

والتي لديها الاستعداد للقيام بتنفيذ علميات بالوكالة ونيابة عن تلك الدول الى جانب خدمة مصالحها الخاصة. ويأتي ذلك الاهتمام انطلاقا من رؤية كل دولة لسياسات الدول المنافسة لها على انها موجهة بصفة خاصة ضد امنها القومي وضد مصالحها الحيوية وتستهدف عزلها والتقليل من هيبتها والتقليص من امكانية ان يكون لها دور مرموق في المجال الدولي.

(١٢) التفاوض لسبر اغوار الطرف الآخر والتأكد من طبيعة مواقفه وطموحاته وبناء الثقة وتعزيزها والتوصل الى تسوية تأخذ بعين الاعتبار المصالح المشتركة للاطراف المعنية او تسعى للهيمنة وزيادة نفوذ احد الاطراف وترجيح مصالحه على حساب مصالح الطرف الآخر، او التفاوض للخداع والتمويه وكسب الوقت وإلهاء الاعداء وصرف انتباههم وايجاد الفرص التي تجعل من الممكن التوقيت الدقيق وتحقيق المفاجأة لفرض سياسة الأمر الواقع التي تنتكر لمصالحهم.

(١٣) المحافظة على سرية تفاصيل المواقف التفاوضية لان تسريب المعلومات يمكن ان يزعزع جو الثقة الذي يعتبر ضروريا للمساومات المثمرة التي تخدم المصالح المشتركة للاطراف المعنية.

(١٤) التوقف عن التفاوض اذا اصبح من الواضح ان الطرف الآخر ليس لديه الاستعداد لتقديم تنازلات. وبذلك يجري تفادي التفاوض مع الذات، وتجنب الاوضاع التي تقلل من حرية الاختيار التي تجعل من الممكن اتخاذ قرارات تخدم المصلحة الوطنية.

(١٥) تغليب المصلحة العامة على المصالح الذاتية .

(١٦) السيطرة على مصادر المياه او اقتسامها لضمان تدفقها دون عائق وعدم تركها في ايدي قوي معادية يكون لديها القدرة التقنية والامكانيات المادية لبناء السدود

واستغلال المياه بطريقة تؤدي الى خنق الدولة المستهدفة اقتصاديا وتهديد امنها الاستراتيجي اذا دعت الى ذلك ضرورات الصراع والهيمنة والابتزاز.

(١٧) حماية الشركات الخاصة والمتعددة الجنسية عابرة القارات وتشجيعها على استثمار رؤوس الاموال واستغلال الثروات المحلية وتوسيع مجالات النفوذ.

(١٨) تمويل مشاريع محددة وملموسة وظاهرة للعيان وتكون ذات طابع استراتيجي وتحظى بقدر كبير من الاستمرارية والهدف من ذلك هو ضبط ايقاع التفاعلات السياسية في الدولة موضوع التنافس عن طريق التحكم في درجة اغداق الموارد او منعها او التحكم في آليات عمل تلك المشاريع حتى لا تؤدي انشطتها الى عكس النتائج المتوقعة من قيامها.

(١٩) اتباع استراتيجية التقرب غير المباشر والتحرك لمحاولة فرض سياسة الأمر الواقع على القوى المستهدفة عن طريق الالتفاف حولها ومباغتتها من الخلف لتحقيق أهداف استراتيجية تحتل مكانة عليا في سلم الاولويات.

(٢٠) مهاجمة استراتيجية العدو لاحتباطها ومنعه من تحقيق اهدافه واحتوائه دون ان يسمح للنزاع ان ينزلق الى حالة الاحتكام الى الحرب.

(٢١) افتعال الازمات واستخدام القوة المسلحة النظامية وحرب العصابات للضغط على القوى المستهدفة وتضييق دائرة الاختيار المتاحة لها وتعديل نهجها السياسي لتحقيق اهداف استراتيجية.

(٢٢) الإحتواء من خلال التهدة والتعاون والتأثير على صناعة القرارات التي تتعلق بالمصالح الحيوية المشتركة.

تلك باختصار هي أهم أهداف الصراع الدولي في هذه الفترة وخصائص السياسات الخارجية ونتائج الصراع ووسائل ادارته المتمثلة في استراتيجيات الردع والاحتواء والهجوم التي تعبر عن انماط السلوك والمفاهيم التي تتحكم في تلك الانماط وتدخل في صميم تكوين العقول السياسية المحركة للقوى المكونة للنظام الدولي والتي تدير الصراعات الدولية وتؤمن في ممارساتها بما اكده الجنرال البروسي كلاوزفيتز في الثلث الاول من القرن التاسع عشر بأن "الحرب هي اداة للسياسة واستمرار لها بوسائل اخرى". كما انها توضح ان مفهوم القوة نسبي وان قوة كل طرف ترتبط في قياسها بقوة الطرف الآخر وحجم المشكلة والظروف الدولية المحيطة. وأن القوة لها اشكال مختلفة منها العقيدة والارادة والامكانيات الاقتصادية والحربية والتنظيم والموقع الجغرافي والوسائل الدبلوماسية المختلفة والتحالفات. وتعني ايضا ادراك الدولة وتقييمها لمصالحها الاستراتيجية، وتحديد لها لاولوياتها بوضوح وقدرتها على الاحتفاظ بزمam المبادرة وحماية تلك الاولويات، ووجود الظروف الملائمة والرغبة من قبل الدولة لتحقيق تلك المصالح، واتخاذ الخطوات العملية التي تترجم القدرة والسياسات الى واقع أو برنامج عملي يتم اختباره وينجح أو يفشل بنسب متفاوتة على صعيد الواقع من خلال الصراع أو التعاون أو التعاون والصراع مع الطرف الآخر حسب مقتضيات الاحوال .